العرب
السبت 2021/08/28
السنة 44 العدد 12162

العراقَان: الكوفة والبصرة «بين الحق والغلبة»

حال المدينة للأخرى كحال الجناح للجناح في جسد الطير الواحد

حـال ما يجمع بين البصرة والكوفـة، كحال ما يجمع بين الكثير من المدن المتلازمة، حتى كان إذا قيل العـراق فمعناه البصرة والكوفة، وكان يطلق عليهما أحيانا اسـم العراقـين. ورغم هذا التلازم الثنائي، يقول حسـن إسـميك، كانت النزعات السياسية العنوان الأبرز لتاريخ "العراقين" ابتداء من موقعة الجمل.

حسن إسميك
كاتب ومفكر عربي

تتميـز لغتنـا العربية، لغـة القرآن الكـريم، بكثرة قواعدهـا النحوية التي اسـتُنبطت عبر عقود طويلة من الزمن، حيث بـدأ وضع القواعـد اللغوية على يدي أبي الأسـود الدؤلـي الكناني، بعد أن كثر اللحن فـي اللغة من غير العرب، ويقـال إن الدؤلـي عـرض قواعده على علـي بـن أبـي طالب رضـي اللـه عنه فاستحسـنها قائـلاً: "مـا أحسـن هذا النحو الذي نحوت"، فسـمي علم قواعد اللغة العربية نحواً.

وكان قد انتشـر اللحن (أو اعوجاج القول) في اللغة كنتيجة طبيعية لانتشار الإسـلام وتوسـع رقعة دولته على بقاع جديـدة مـن الأرض والبشـر، وعليـه فليس بغريب أن تتأسـس أولى المدارس النحوية في أولى المدن الإسلامية (خارج شبه الجزيرة).. البصرة والكوفة، اللتين كثـر بين سـكانهما الداخلون الجدد في الإسلام من غير العرب.

قصة مدينتين

أُسسـت البصرة على يدي عتبة بن غزوان، على بقايا (تردم) الكلدانية سنة 14 هـ (635 م) في عهـد الخليفة عمر بن الخطـاب، وسـميت بذلك كـون أرضها بصـرة (حصبة). ويُحكـى من الطرائف عنهـا أنه لمـا دخلها المسـلمون وجدوا فيها خبز "الصمون" الذي اشـتُهر بأنه يسمّن فكانوا يأكلون منه وينظرون إلى سواعدهم ويقولون: "ما نرى سمنا"!

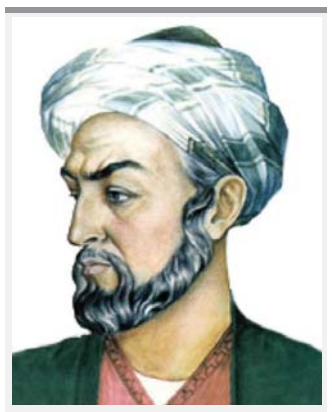

حقيقة الصراع والعصبية لم تكن بين سيبويه والكسائي وإنما بين البصريين والكوفيين إنه صراع المصالح والولاء

أمـا الكوفة فجاء تأسيسـها على يد سعد بن أبي وقّاص بعد توأماتها البصرة بعدة أشـهر أو بثلاث سـنوات (تختلف الروايات)، ويقال في سـنة 17 هـ (638 م)، وذلك بعد طرد فلول القوات الساسـانية إلى النجد الفارسـي، وحاجة المسـلمين لإنشـاء دار هجـرة علـى تخـوم البلاد المفتوحـة، فكانـت مسـتقراً للمجاهدين العرب، ولعل هـذا الحدث المتمثل بالفتح كان السمة المميزة لتاريخ هذه المدينة.

تنافس سياسي ولغوي

كانـت البصرة والكوفة أبرز حواضر العراق قاطبـة، حتى كان إذا قيل العراق فمعنـاه البصـرة والكوفـة، وكان يطلق عليهمـا أحياناً اسـم العراقـين، وعلى الرغم من هـذا التلازم الثنائـي بينهما، إلا أن النزعات السياسـية كانت العنوان الأبـرز لتاريـخ "العراقـين" ابتـداء من موقعـة الجمـل، حيث نزل علـي بن أبي طالب وجماعته فـي الكوفة جاعلاً إياها مقـراً لخلافته، فيما اتخـذت أم المؤمنين عائشة من البصرة مهبطاً لها، ومنذ تلك الواقعة أمسـى هوى البصـرة عثمانياً أمويا وهـوى الكوفـة علوياً هاشـمياً، ليزداد الاختلاف بتعاقـب الأيام، فناصر البصريون دولة بني أمية، قبل أن تنقلب الأمور لغير صالحهم فتُعز الكوفة وتُهمل البصرة أيام الدولة العباسية.

اتخـذ التنافس بـين الكوفة والبصرة مظاهر متعددة، أهمها وأطرفها المفاخرات البلدانيّة، الذي جاء بعد اسـتقرار القبائل العربية في الأمصار الإسـلامية المفتوحة بحسـب ما يـروي عمر حمـدان في كتابه الذي يحمل الاسم نفسـه "أدب المفاخرات البلدانيـة"، فحلّت عصبية الموطن الجديد مكان عصبية القبيلة في سابقة لم يعرفها العـرب المتعصبـون لانتماءاتهـم القبلية مـن قبـل، وكان من أشـهر المفاخرات تلك التي وقعت في مجلس الخليفة العباسـي أبوالعباس السـفاح، بين أبي بكر الهذلي (الـذي مثّل البصرة) من جهة، وبين محمد بـن عبدالرحمن مـع الحجاج بـن أرطأة (اللذَيـن مثّلا الكوفة) مـن جهة ثانية، كما حضرهـا الحسـن بـن زيد بن الحسـين (مخاصمـاً لأهـل البصرة). ومـن أبرز ما ورد فيها أن الحسن بن زيد خاطب الهذلي قائلاً "أنتم أصحابُ عليّ يوم سـرتم إليه لتقتلـوه"، فأجابـه الهذلي "نحـن والله أصحابُ عليّ يوم سـرنا لنقتله، فكف الله أيدينـا وشـوكتنا عنه وعن غيره. وسـار إليه أهل الكوفة فقتلوه، فأيُّنا أعظم ذنباً"؟ فـي المقابل أقـرّ الهذلي للكوفيـين بأنهم متفوقون بتعـداد علمائهم وغزارة علمهم، لكنه ردّ عليهم بـأن لا نفع للعلم إذا كانوا على مفسـدة من الأخلاق والسلوك، وذلك بعد إدعاء عـدد منهم للنبوة، فعوقبوا من قبـل أهل الكوفة بالصلب وضرب الأعناق، ما دعا الهذلي للقـول "والله ما رأيت بلداً قط أكثر نبياً مصلوباً ولا رأسـاً مضروباً من أهل الكوفة"!

الأغرب في تلك المناظرة، أنه لمّا ضاق الأمـر على الكوفيين عادوا إلى حسـبهم ونسبهم ليتفاخروا بهما، فقال محمد بن عبدالرحمن مخاطباً أبا العباس السفاح "نحن أشـرف منهم أشـرافاً وأذكر منهم أسلافاً. مُقرّ بذلك أبوبكر"، لكن أبا بكر لم يقره بذلك، قال "فقلت: معاذ الله"، ثم أكمل "هل كان فـي تميم الكوفة مثل الأحنف بن قيـس في تميـم البصرة.. وهـل كان في قيـس الكوفة مثـل قتيبة بن مسـلم في قيس البصرة.. وهـل كان في أزد الكوفة مثل المهلب فـي أزد البصرة"، وكان كلما ذكر اسماً يُتبعه بأبيات من الشعر نُظمت فـي صاحبه، وكأن أبناء القبيلة الواحدة والفخـذ الواحـد والجد الواحـد عندما انقسـموا بـين كوفة وبصرة، انقسـمت معهم الحظوة والمكانة!

> التنافس بين الكوفة والبصرة جاء بعد استقرار القبائل العربية واتخذ مظاهر متعددة من أطرفها المفاخرات البلدانيّة

ومع انتهاء تلك الجولـة التفاخرية لصالح البصري علـى الكوفيين، ضحك الخليفـة بحرارة قائـلاً "والله ما رأيت مثل هذه الغلبة قط".

المسألة الزنبورية

المسـألة الزنبورية هي عنوان أشهر مناظرات تاريخ النحو الذي اشتهرت به المدينتان شـهرة بلغت الآفاق، وكان أول بطليها إمام النحاة سـيبويه (سيبويه: كلمـة فارسـية تعنـي رائحـة التفاح)، الذي قدم البصـرة صغيراً ليتتلمذ على أيدي علمائها، وثانيهما الكسائي (معلم الرشيد وابنه الأمين) الذي يعد من حجج الكوفة فـي اللغة والنحـو وأحد القراء السبعة المشهورين (وكليهما من أصول فارسـية)، وكان أن قصد سيبويه بغداد ونـزل ضيفاً على يحيـى البرمكي وزير الرشـيد فأكرمـه، ثم دُعي إلـى مناظرة نحوية مع الكسائي فأبدع الاثنان فيها، إلى أن سـأل الكسـائي سـيبويه حول كيفيـة القول فـي عبارة "كنـت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور، فإذا هو هي، أم فإذا هو إياها"؟، أجاب سـيبويه "فإذا هو هي، ولا يجوز النصب"، فخطّأه الكسائي بالقول إن النصب جائز، وعليه فالوجهان صحيحـان. واحتدم الخلاف بينهمـا طويـلاً؛ ولحل المسـألة احتكم الطرفان إلى مجموعة من العرب الأقحاح الذين ينطقون اللغة على سليقتها، إلا أن تدخلاً سياسـياً من وراء الكواليس دفع العرب بأن ينصروا الكسـائي رغم خطأ مـا ادعاه من جواز الوجهـين، فطالبهم سـيبويه بنطـق الجملـة منصوبة، فلم تطاوعهم ألسـنتهم وتهربـوا من الأمر، فانقبـض خاطـر سـيبويه وخـرج من مجلـس الوزير مدبراً إلـى بلاد فارس، لخجله من لقاء أهل البصرة، ولم يمض وقت طويل حتى مات مغموماً بحسـب ما تخبر به الروايات، وعلى الرغم من أن الحق كان لسـيبويه، إلا أن الغلبة كانت للكسائي.

يـرى ابـن خلـدون أن الأصـل في العصبية القرابة من النسب "النعرة على أهل القربى وذوي الأرحام"، مع ذلك فهو يقـرّ بألا قيمة في النسـب إلا إذا كان به رابطـة مصلحة، وإلا فهو كما يقال "مثل علـم لا ينفع، وجهالة لا تضر"، أما المهم عند ابن خلدون فهي العصبية، وقد نظر إليها في إطار تحولهـا من مجرد قرابة الدم والنسـب إلى قوة اجتماعية تسمح لها بالغلبة ونيل السـلطة على أسـاس القرابـة، فالنسـب لا يعنـي بالضرورة قرابة الدم بقدر الانتماء الفعلي لجماعة معينة.

عصبية النسب

وتثبت المسألة الزنبورية الآنفة الذكر أن حقيقة الصراع والعصبية لم تكن بين سيبويه والكسائي، وإنما بين البصريين والكوفيـين، إنه صراع المصالح والولاء، حيـث هيمنت مدرسـة الكوفـة في تلك الفترة لأسـباب سياسـية، والتـي عبّر عنهـا الوزير البرمكي فـي تعقيبه على مناظرة ثانية بين الكسـائي واليزيدي، غلب فيهـا الثانـي الأول، بالقول "خطأ الكسـائي مـع حسـن أدبه أحـب إلينا من صوابك مع سـوء أدبـك"، وكان ذلك تعبيـراً عن غضبه لكشـف رأسـه أمام الرشيد بعد أن ضرب قلنسوته بالأرض. وكان اليزيدي مناصراً لسيبويه، وأنشد في المسـألة الزنبوريـة شـعراً ختمه بالقول: (إن الكسائي وأصحابه/ يرقون في النحو إلى أسفل).

وأخيرا..

حال البصرة والكوفة في التاريخ هو حال مـدن كثيرة في الحضـارة العربية الإسـلامية، لم تُتـرك لشـأنها كي تنمو وتسـتمر وتتطـور، بل لقـد كان لموقف السـلطة من سـكانها، أو مـن الأحداث التي جرت على أرضهـا، الأثر البالغ إما في ازدهارها وتطورهـا، أو في إهمالها ومحاربـة تأثيرهـا وحضورهـا تعـود فتصغـر وتنكمـش على ذاتهـا ويخفت ذكرها. فدمشـق مثلاً التي مثلت عاصمة بني أمية ودار دولتهم حتى صارت مركز ثقـل العالم القـديم آنـذاك، عُوقبت أيام العباسيين بالإهمال والتفريط حتى تكاد تمر العشرات من العقود دون أن يذكرها التاريخ بشيء، وهكذا استمر الحال بعد العباسيين في الدول المتعاقبة التي حكمت المنطقة انتهاء بحكم العثمانيين، قبل أن يعلن الملك فيصل دمشق عاصمة المملكة السورية عام 1920، ثم عاد الفرنسيون فأسقطوا المملكة الناشئة بعد معركة ميسلون الشهيرة من العام ذاته، ونفى فيصل المدعوم من بريطانيا خارج دمشق، ولكنها استمرت كعاصمة عربية مهمة إلى اليوم، يحمل أكبر ميدانين فيها اسمي: ساحة الأمويين وساحة العباسيين، ربما كإشارة خفية إلى أن تاريخنا سيبقى حاضراً في مصائر مدننا بخيره وشره.

أخيراً.. إن حال ما يجمع بين البصـرة والكوفـة، كحـال مـا يجمـع بـين الكثيـر من المـدن المتلازمـة كمكة والمدينة أو دمشـق وحلـب، أو القاهرة والإسـكندرية، إنه حال الجناح للجناح في جسـد الطير الواحـد، فكيف يمكن لواحـدة مـن المـدن التوأميـة أن تعلو وترتفـع دون جناحها الثاني، والحقيقة أن عصبية المصلحـة والولاء لعبت أثراً مدمـراً منـذ قـرون طويلة مـن الزمن، تنازعـت فيهـا بعـض المـدن العربية مقدمـة السياسـة علـى كل مـا عداها، حتـى وصلت الأمـور كما في المسـألة الزنبورية إلى تضليل الحقيقة وتلوينها بالأسود، لا لشيء سوى لعصبية مقيتة يمارسـها أصحاب الجذر الواحد، فكأن فروع الشـجرة تشـرب كل منها من ماء بئر مختلف أو كأنهـا تتغذى على تربة منفصلة عن بعضها البعض.

> حال البصرة والكوفة هو حال مدن كثيرة في الحضارة العربية الإسلامية لم تُترك لشأنها كي تنمو وتستمر وتتطور

وصلت أمـور المفاخرة بـين العرب بعـد الإسـلام لدرجة باتوا يميزون فيها بين قيسي وقيسي، تميمي وتميمي، أزدي وأزدي، فتفرقوا عن بعضهم بعضاً ولم يتوحدوا إلا أمام الآلاف من لسعات الزنابير ولدغات العقارب التي سممت جسد الأمة وأوهنت أجنحتها، فما نالته هذه الفئة من جراح وآلام، ناله ذلك المجموع من جراح وآلام.. فإذا هو هي، كما قال سيبويه منذ البداية!

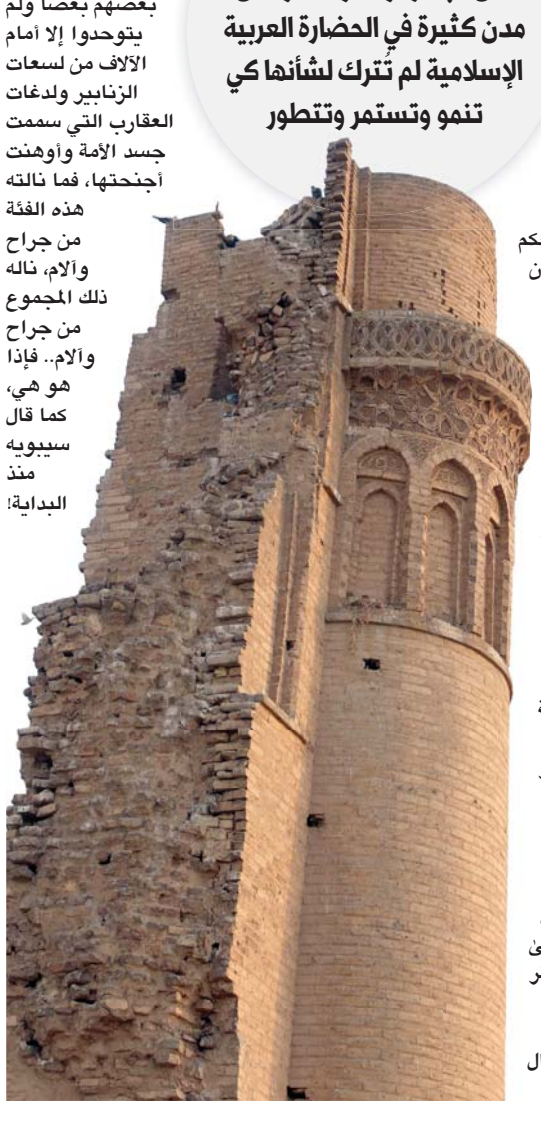

الكوفة القديمة.. بقايا تقاوم الاندثار

بقايا مسجد الإمام علي في البصرة